الخلق الحسن وآثاره الطيبة

الحمد لله معز من أطاعه واتقاه، ومذل من خالفه وعصاه، وصلى الله وسلم على نبينا ورسولنا محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه. أما بعد:

فإن أفضل ما يتحلى به المرء المسلم ويتسم به؛ هو الصفات الحسنة والأخلاق الفاضلة الحميدة. ولقد امتدح الله سبحانه وتعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم وأثنى عليه بقوله: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم: ٤]، أي: على جانب كبير من صفات الخير وفضائل الأخلاق.

وروى أبو ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن». رواه الإمام أحمد والترمذي.

وهذا الحديث الشريف من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم فقد جمع فيه صلى الله عليه وسلم بين حق الله سبحانه وتعالى وحقوق عباده.

فحقه سبحانه وتعالى أن يتقوه حق تقاته فيتبعوا أوامره، ويجتنبوا نواهيه، ويؤدوا

ما أوجبه عليهم من العبادات ليأمنوا من سخطه وعذابه، ويحصل لهم بذلك الفوز بالجنة، والنجاة من النار.

وهذه وصية منه سبحانه وتعالى لجميع خلقه أولهم وآخرهم، ووصية كل رسول لقومه: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ [نوح: ٣].

وقد ذكر سبحانه وتعالى خصال التقوى في سورة البقرة في هذه الآية: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وكذا في سورة آل عمران في هذه الآيات منها: ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٣ – ١٣٥] ... الآية.

ففي الآيات السابقة وصف سبحانه عباده المتقين بأنهم الذين آمنوا بالله

عقيدة وعملاً ظاهراً وباطناً، وقاموا بأداء ما وجب عليهم من العبادات البدنية والمالية، وصبروا على ما أصابهم من الله سبحانه وتعالى، واتصفوا بالحلم والعفو عن الناس، واحتمال أذاهم والإحسان إليهم، واتصفوا بالمبادرة والإسراع إلى الاستغفار والتوبة عند ظلمهم أنفسهم بالمعاصي أو عمل أي ذنب.

وفي الحديث السابق أمر منه صلى الله عليه وسلم لأمته ووصية منه لهم بملازمة التقوى حيثما كان الإنسان في كل وقت وفي كل مكان؛ إذ لا غنى له عنها في جميع أحواله. وبما أن جميع الخلق خطاؤون ولابد أن يحصل بعض التقصير في حقوق التقوى وواجباتها بين صلى الله عليه وسلم ما يكفر ذلك ويمحوه وهو أن يتبع الإنسان السيئة الحسنة لتمحوها وتدفعها.

والحسنة اسم جامع لكل أمر حسن يقرب إليه سبحانه وتعالى، وأعظم ذلك التوبة النصوح والاستغفار، والإنابة إلى الله، وخوفه ورجاؤه، والطمع في فضله، والإحسان إلى خلقه، والعفو عنهم، وتيسير أمورهم بما يقدر عليه الإنسان؛ ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤].

والمصائب التي تصيب المؤمن من فوات محبوب، أو حصول مكروه، أو غم أو هم، أو أذى حتى الشوكة يشاكها؛ ففيها تكفير للخطايا والذنوب إذا صبر واحتسب؛ وذلك من فضل الله على عباده ورحمته بهم.

والجانب الثاني: الذي أشار إليه الحديث الشريف: هو حقوق العباد؛

وذلك بقوله : «وخالق الناس بخلق حسن» ، وهو معاملتهم بالرفق واللين والإحسان ، وطلاقة اللسان ، وبشاشة الوجه ، وكف الأذى عنهم من جميع الوجوه ، وسعة الحلم والصبر عليهم وعدم الضجر منهم ، ولطف الكلام والقول الجميل المؤنس للجليس ، المدخل عليه السرور ، ومعاملة كل واحد منهم بما يليق به ويناسب حاله من احترام للكبير ، ورحمة للصغير ، ورفق بالضعيف ، وتوقير للعالم ، وتعليم للجاهل.

ولا شك أن من اتصف بهذه الصفات المذكورة ونحوها من صفات التقوى فقد حاز الخير كله ، وفاز بالسعادة في الدارين ؛ لأنه قام بحق الله وحق عباده.

هذا ، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا للثبات على الإيمان والتقوى وحسن الأخلاق. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

